مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية من ١٩ الى ٢٣ ذوالحجة ١٣٩٩هـ
تشرين الثاني ١٩٧٩م
المجلد الثاني - العدد ٢

الامام الشافعي

حياته وثقافته

الدكتور حسني ناعسة
كلية الاداب

تتناول هذه الدراسة سيرة الامام الشافعي فتجمل حياته منذ ولد في غزة سنة ١٥٠ هـ حتى مات في مصر سنة ٢٠٤ هـ وتعرض للثقافات التي الم بها واطلع عليها .

ولد ابو عبد الله محمد بن ادريس...بن شافع القرشي في مدينة غزة سنة خمسين ومائة للهجرة ، ويبدو ان اباه ادريس بن العباس الهاشمي كان قد اضطر الى هذه المدينة النائية عن موطن قريش ، طلبا للرزق والمعاش ، غير انه توفي وابنه لم يزل في المهد ، فرجعت به امه الازدية الى مستقر قرابته في ام القرى مكه ، وهو ابن سنتين .

وما ان نما عوده بعض النمو حتى اسلمته والدته الحانية الى الكتاب ، الا انها لم تكن تملك ما يكفيه من نفقات دراسية ، وهنا بدأت احاسيس الفتى الناشيء الموهوب تتفتح ، ليشق سبل المجد باخلاص العاملين وجهاد الطالبين ، فكان كلما انشغل المعلم خلفه على التلامذة ، جاعلا هذه النوبة بمثابة اجر يسديه اليه ، وتخبرنا الروايات ان مؤدبه قدرضى منه هذا الاجر .

ولم يطو الغلام اليتيم من عمره سبع سنوات حتى استظهر القرآن ثم شرع في مرحلة علمية ثانية ، منذ هذا الوقت المبكر ، فكان يجلس على مقربة من حلة العلماء ليحفظ ما استطاع من احاديث النبوة ، ولم يلبث ان استهوته حكمة الرسول ، فصار يكتبها على ما يستطيع توفيره من قطع خزف او دف او سعف نخيل او أكتاف جمال او ظهور اوراق كان يطلبها من دواوين الحكومة ، حتى ملأ من ذلك جرة قديمة كانت لدى والدته .

وعلى عادة من كانوا يتبدون لنهل الفصاحة من منابعها العذبة الصافية ضرب محمد بن ادريس في بوادي هذيل وغيرها من امهات القبائل التي لم يشب لسانها لحن ولا رطانه ، وهنالك جمع كثيرا من لغتها واشعارها ولكن عين الله التي عوضته حنو الابوة ازجت اليه من يهديه سبيل ما هو مهيأ له من اول المشوار ، وقد حكى الشافعي قصة اتجاهه الى الدراسات الفقهية فقال : « لما رجعت الى مكة جعلت انشد الاشعار واذكر الآداب والاخبار وايام العرب ، فمر بي رجل من الزبيديين ، فقال لي « يا أبا عبد الله عز علي الا يكون مع هذه الفصاحة والذكاء فقه ، فتكون قد شدت اهل زمانك » (١) . وبذلك استيقظت ميوله التي استجاب لها منذ ختم القرآن وجمع طائفة من الاحاديث .

وكان في مكة امثال سفيان بن عيينة ومسلم بن خالد الزنجي ، فتردد عليهما يغرف من علوم الدين غرفا طيبة ، وكان اسم مالك بن انس قد ذاع آنئذ في كل مكان ، فاستعار الشافعي كتابه « الموطأ » من رجل مكي ، وحفظة ، ثم قصد اليه في المدينة ولما يتجاوز اثنتي عشرة سنة وقد انكب على معينه ينهل ويستزيد ، ويدفعه اعجاب مالك بذكائه الى الامعان في اهتمامه العلمي ، ويروى ان امام دار الهجرة قال عن الشافعي « (ان يك احد

(١) الديباج المذهب : ٢٢٨

يفلح فهذا الغلام) . (١) وقال : « ما اتاني قرشي افهم من هذا الفتى ، يعني الشافعي » (٢) وقد حفظ له تلميذه البر فضله ،وظل يقول بعد ان بلغ ما بلغ : « ما لك معلمي واستاذي ، ومنه تعلمنا العلم ، وما احد أمن علي من مالك ، وجعلت مالكا حجة فيما بيني وبين الله تعالى » (٣) .

وفي هذه الفترة مر بالمدينة وال على اليمن ، فكلمه بعض القرشيين بشأن الشافعي لعله يجد له عملا عنده ، فقبل منهم ، وصحبه معه ، وكلفه بوظيفة بسيطة ، فقام بها ، فأسلم اليه أخرى ، فنهض بعبئها ، وكان يأتي المعتمرون من اليمن الى مكة لزيارة بيت الله الحرام ، فكانت امه تسألهم عن اخباره ، فيثنون عليه . ويبدو انه كان يذهب بين الفينة والفينة الى مكة ليلقى والدته ، وانه كان يقابل شيوخة الذين تلمذ لهم من قبل ، ويأخذ عنهم من جديد . وما ان بلغ من العمر خمس عشرة سنة حتى قال له مسلم بن خالد ، شيخه : « أفت فقد آن لك ان تفتي » (٤) كما بلغ في هذه السن منزلة كان يملي فيها على الحجاج المصريين الذين كانوا يقدمون على مالك ، بعد ان يؤدوا الفريضة ، وهو ما قرب الى ذهنه فكرة الذهاب الى ديارهم فيما بعد .

وربما احس الشافعي في نفسه مقدرة على الحجاج ، فاذا به – في احدى لقاءاته لمالك يراجعه القول ويناظره وينزلق في شعائر المراهقين ، او بعض المراهقين ، من المبالغة في المراء ، والاكثار منه ، فقال له مالك : « اذا أردت : فان قيل قلنا ، فاقصد هاهنا . وأشار بيده الى جهة العراق ، اشارة الى اصحاب ابي حنيفة ، لانهم اهل نظر وجدال » (٥) . فخرج « المفتي الناشيء » من عند شيخه مغضبًا لاول مرة ، وقصد الى العراق ، ولقي محمد بن الحسن واخذ عنه ، ولم يكتف بالذهاب الى « هنا » اي العراق ، كما اشار عليه استاذه ، بل ضرب ايضا الى « هناك » بلاد فارس والمناطق القاصية ، يلقى ائمة العلم ، ويكسب من معارفهم ، حتى صار ابن احدى وعشرين سنة ، ثم عاد الى العراق ، وكان الرشيد قد استخلف منذ سنة سبعين ومائة ، فاكرمة وولاه الصدقات بنجران ، لكن مودتة المتمكنة الوفية لامام دار الهجرة قد عرجت به شطر المدينة المنورة ليراه ، وقد اغتنى ، بعد ان تركه فقيرًا ، ومن ذلك الحين جعل استاذه يبعث اليه كل عام من هداياه ، الى ان لبى مالك نداء ربه سنة تسع وسبعين ومائة .

(١) وفيات اعيان ٣ / ٣٠٦
(٢) مناقب الشافعي للرازي ٣١ .
(٣) الديباج المذهب ٢٢٨ .
(٤) تاريخ الخميس ٢ / ٣٧٤ .
(٥) المحمدون من الشعراء ١٣٧

وخبر توليه صدقات نجران وهو ابن احدى وعشرين سنة ، اي عام ١٧١ هـ ، ينفي الروايات التي تجعل زيارته لبغداد مرتين فحسب ، احداهما سنة ١٩٥ هـ والاخرى سنة ١٩٨هـ (١) ، فهو قصد اليها سنة ١٧١ هـ ، او قبلها ، كما رأينا ، وقصد اليها سنة ١٧٥هـ (٢) ، وسنة ١٧٨هـ (٣) واقتيد اليها سنة ١٨٤ هـ (٤) ، لاتهامه بمؤازرة ثائر كان يريد خلع بيعة الرشيد ، وذلك في اثناء تولي الشافعي صدقات نجران باليمن ، غير ان كل شيء اكد براءته مما رمي به ، فعفا عنه امير المؤمنين .

وتهمته تدفع بدورها ما يقال من ان محمد بن الحسن وابا يوسف قد كادا له عند الرشيد ، واوغرا صدره عليه ، وليس مثل هذه الاقوال في حقيقتها الا كمثل الذي لا يقدر ان يمدح امرأ من دون ان يذم غيره ، فالمصادر تخبرنا ان محمد بن ادريس كان يجل محمد بن الحسن ويقول فيه : « ما رأت عيناي مثل محمد بن الحسن ، ولم تلد النساء في زمانه مثله » (٥) ، وان محمد بن الحسن ـ من جهته ـ قد ألان له قلب الخليفة ، وشفع له عنده ، وعزم عليه ان ينزل في داره ، فكانت تلك فرصة محظوظة استطاع الشافعي ان يكتب فيها كثيرا من مصنفات الحنفية ، ويبذل على النساخ في سبيل ذلك ما تبقى من اعطية الرشيد .

ويعود الشافعي الى مكة وقد نضجت ثقافته وتبحر الى ابعد غاية في فقه الرأي ، اضافة الى فقه الحديث ، وصار يفيض على حلقات الدارسين في البيت الحرام ، وعلى الحجاج القادمين من كل فج عميق ، ويلبث على هذه الشاكلة حتى عام ١٩٥هـ ، عندما ذهب الى بغداد واقام بها حولين يدرس ويصنف ، ثم رجع فترة قليلة الى ام القرى ، وسرعان ما انقلب الى العاصمة العباسية سنة ١٩٨ هـ ، فأقام فيها اشهراً معدودات على برم منه بأهل الكلام وهواة المراء الذي لم يعد يلقى منه اي هوى بعدما استوى له علم نادر ، وحكمة بالغة ويتجه الى ارض كنانة وهو يقول :

لقد اصبحت نفسي تتوق الى مصر ... ومن دونها ارض المهامه والقفر
فوالله ما ادري أللفوز والغنى ... اساق اليها ، أم أساق الى قبري ؟(٦)

وتذكر المصادر ان الشافعي قد لقي في مصر اكراما واسعاً ، وانه كان « محبباً الى الخاص والعام لعلمه وفقهه وحسن كلامه وادبه وحلمه » (٧) وصار يستكمل ابحاثه ويتابع

(١) انظر الانتقاء ٦٧ ، وطبقات الحنابلة ٨٠/٢
(٢) و (٣) تاريخ ابي الفداء ٢٨/٢ وتتمة المختصر ٢١٥/١
(٤) حلية الاولياء ٨٥/٩
(٥) مناقب الشافعي للبيهقي ١٦١/١
(٦) العقد الفريد ٢٢/٣. وينسب التبيان الى ابي نواس ايضا .
(٧) معجم الادباء ٢٢١/١٧

تأليفه الذي بدأه من قبل ، واكثر ، نافذا الى آرائه الجديدة التي عدل فيها شيئا من احكامه التي استنبطها في الحجاز او العراق ، ولبث يدرس حتى وفاته سنة ٢٠٤ هـ .

وقد ترك الشافعي من بعده ثلاثة اولاد ، محمدا الذي كان قاضيا في مدينة حلب ، وفاطمة وزينب ، وتوفي ابن آخر له يدعى الحسن وهو طفل ، وكذلك ترك ذكرا حسنا في مجالات الاخلاق الكريمة والعلم والشعر .

فكل التراجم تؤكد تقوى هذا العالم الجليل ، وانه لم تعرف له صبوة لا في شباب ولا في كهولة وانه كان يختم القرآن كل ليلة وكان عدلا لطيفا كريما شجاعا ذكيا مخلصا في علمه.

وتصور الروايات الامام الشافعي رجلا مديد القامة سائل الخدين قليل لحم الوجه خفيف العارضين طويل العنق آدم يخضب لحيته حسن الصوت كريم الوجه عظيم العقل اليف السمت مهيبا فصيحا .

وتذكر تلك الروايات ان الشافعي لم يكن في الطراز الاول من الفقهاء والمحدثين فحسب ، بل كان عالما كذلك بكلام الصحابة و آثارهم واختلاف اقاويل العلماء واصول الفقه والتفسير والقراءات والانساب والتاريخ والطب والرمي ، وكان صادق الفراسة صافي النفس نافذ البصيرة ، وكان حجة في اللغة عند ابن هشام وثعلب والازهري ، حجة في النحو عند المازني ، وقد قرأ عليه الاصمعي اشعار هذيل وديوان الشنفرى ، وكان يروي اضافة الى ذلك لثلاثمائة شاعر مجنون ، غير العقلاء ولثلاثين شاعرا اسمه عمرو ، فضلا عن العمرين .

وسوف نقف في العدد القادم على اثار الشافعي العلمية والادبية ، باذن الله .

اهم المراجع

الانتقاء – لابن عبد البر

الديباج المذهب – ابن فرحون

شذرات الذهب – ابن العماد

طبقات الشافعية – للاسنوي

طبقات الشافعية – لابن هداية الله

طبقات الشافعية – للسبكي

معجم الادباء – لياقوت

مناقب الشافعي – للبيهقي

مناقب الشافعي – للرازي